الشعر

يقول ابنة العربيّة ان الشعر هو الكلام المقفّى الموزون ويقول الافرنج ان كل كلام تخيليّ يسمّى شعرًا سواء كان نظمًا او نثرًا او هو عندهم اسلوب يعبّر المرء بهِ عن افكاره وشعوره ابان احتياجها واعتلائها بكلام قد يكون موزونًا

فالحدّ الافرنجي اعم من العربي وقد يظهر لمن لم يتدبر الامر ان الحدين يتخالفان بحيث لا يصح اطلاق الشعر على القريض الافرنجي خروجهِ عن القيود التي وضعها لهُ كتبة العرب ولكن من علم انهُ لما نزل القرآن الكريم قال بعض سامعيهِ انهُ شعر فنزلت بعض الآيات في رد قولهم ان الحدين يتلاقيان لا سيما وان من مواد اللغة العربية يستفاد ان شعر الشعر اي قالهُ وشعر بمعنى اجادهُ كثيرًا من ذات معنى شعر يشعر اي عقل وفطن واحس مما يدلُّ ان الحدين صادران عن اصلين متماثلين في المعنى يدلان ان الشعر هو القول الذي يشعر بهِ المرء سيفي نفسهِ فهو لذلك ليس مما يأتي كرهًا اي لا يُساق الى المخيلة بالتعليم والتثقيف بل توحي بهِ النفس فينطق بهِ اللسان وانما وضع لهُ علماء العربيّة ذلك القيد بالوزن والقافية تنزيهًا لآي القرآن الشريف بعد التنزيل

واحياء النفس بالخواطر الشعريّة هو سرّ ما نجد مستغيثًا ذكرهُ بين الناس من ان كل الامم لقول الشعر عفوًا من غير سائق اليهِ او معدّ لهُ . ونحن نعرف ان العرب في الجاهليّة كانوا ينطقون بالشعر حفزّ القريحة وحالهم من الجهل والخشونة غير خفي . ولم يكن هذا الحال من خصائص امتهم التي انفردت بها دون سائر الناس كما يزعم بعضهم بل تراهُ شائعًا بشمل كل الامم المعروفة منذ ايام جاهليتها . اعتبر ذلك بما ينقل الرواة والسياح عن اعرق القبائل همجيةً كيف ان لها اغانيّ واناشيد حربيّة وغراميّة يتغنون بها وما هي الاّ الشعر في لغاتهم اودعوهُ زبدة تخيلاتهم

ولا يُعارَض هذا القول بما روي انا عن جودة النظم في جاهليّة العرب ومتانة تراكيبهم وحسن اسلوبهم فان اللغة التي نظموا بها كانت لغتهم ينطقون بها كما ينطق العامي لهذا العهد بلغتهِ وفوق هذا فان العرب قبل الاسلام لم يحفظوا ديوان اشعارهم مكتوبًا ولا هم اثبتوا لغتهم وقواعدها في كتب يرجع اليها في قياس ما اتصل بنا من شعرهم وانما اتصلت تلك الاشعار بمن وضعوا القواعد في صدر الاسلام . فكان القرآن الكريم اولاً ثم هاتيك الاشعار قياسًا لما

وشعراً من القواعد في العربية فلا غروَ والحالة هذي ان نرى سكان تلك الاشعار رفيعاً من الاجادة في النظم . فاحبك انا نرى بلاغة شعر الجاهلية فتأخذنا الدهشة والحال ان القوم كانوا ينظمون الشعر بلغتهم التي القوا التحدث بها والما نستعربها نحن لان عربيتنا لهذا العهد كادت تخرج عن الاوضاع الاولى فحسب من يفهم التراكيب القديمة بارعاً ومن اتقنها من كتابنا وشعرائنا مجيداً ولكن لم يزل بعيداً عن الاجادة في تقليدها

ولقد بحث البعض من جلة العلماء في اوروبا واميركا في مبلغ الاجادة فذهب فريق منهم الى ان الامم في جاهليتها اشعر منها في حضارتها وان النظم لا يزال في الامة ناضراً زاهراً حتى تستنير بالعلم والحضارة فيتقلص ظله . ويعللون عن هذا تعليلاً فلسفياً لا يخلو من حقيقة ذلك ان الفنون المستظرفة كالموسيقى والتصوير والنحت والشعر لا تمشي على حكم العلوم التي يزيدها الاختبار وتصقلها المشاهدات لان تلك العلوم تبنى على الاحكام المستمدة من الاستقراء والتخييل بخلاف الفنون المستظرفة واخص منها الشعر فانهُ يراد بها تخييل العواطف تخييلاً حسناً . وقوام الشعر اللغة التي تبرز معانيهُ وهي في حكم الباحثين اشد تأثيراً في النفس اذا كانت ناطقةً بشعور الناظم ولا يتأتى لها ادراك هذه الغاية الاَّ اذا نطقت بلغتها البسيطة الساذجة . فالعلم الذي يحسن اللغة يضعف ذلك الرونق . ومعلوم ان الانسان يقتصر في بدء شؤونهِ على المشاهدات فاذا نطق بما اثرت في جنانهِ فقولهُ هو الشعر الجيد . وهذا حال الناس في جاهليتهم . ولكن متى اعمل المرء البصيرة في مشاهدات البصر وسبح في بحار التجريد الفلسفي خرج من طور الفطرة الى ذروة الفلسفة فلم يبق لتخييلهِ مدًى يخطاهُ الى ما وراء احكام التجريد . وهذا شأن الناس في زمن غدنهم فانك حينئذٍ تجدهُم مهملاً عملياً لتصريف الكلام ومطابقة التخيل على احكام العقل وضبط الالفاظ التي تؤدي معانيهُ فينتج من ذلك ضعف الشعر وقوة العلم

فالعلم والشعر اذاً قلَّ ان يجتمعا لان الشعر عبارة عن وصف الصورة المفردة وتصويرها تصويراً خيالياً يحرك العواطف بخلاف العلم فانهُ لا يعنى بالصور الافراديةِ كعنايتهِ بالتعميم . وينتج من هذا ان الذين يعرفون كثيراً ويفكرون كثيراً قلَّ ان يحسنوا الشعر مع انهم يبرعون في الاحكام العلميةِ والآراء الفلسفيةِ واذا سألتهم وصف رجل مثلاً فربما تقدوهُ تقدماً واخذوهُ باصول التجريح مع ان الشاعر مطالب بوصف الموصوف وصفاً اجمالياً

والناس في حال الفطرة كأنهم اطفال الصغار الاَّ انهم يزيدونهم معرفةً وخبرة فترى الصغير يعبر عن عواطفهِ تعبيراً مؤثراً وكذلك نرى تعبير شعراء الجاهلية عن عواطفهم بشعرهم

ادلّ على شاعريتهم وارسخ قدماً . وانا لنذكر من ايام الطلب في المدرسة ان كثيرين من صغار الطلبة يقرضون الشعر العربي قبل ان يشتد ساعدهم في معرفة شيء من اصول الفنون اللازمة لهُ ولكنهم متى تمكنوا من مبادىء العلوم مالوا عنهُ الى سواهُ ما لم يكن قد صار فيهم ملكة وظهرت عليهم امارات الاجادة فيهِ فيزهدونها بالمزاولة

لكن كل هذا لا يمنع ان ينبغ بين اهل الحضارة شعراء مجيدون يعرفون العلوم ولكنهم يجمعون جنة الشعر ويملأون ادمغتهم من جيد القول المأثور عن الجاهليّة ويسبحون في بحار التخيلات بما توحي بهِ افكارهم فيجيء شعرهم وعليهِ سمة الاجادة

هذا قولٌ يصح اطلاقهُ على شعر كل امةٍ على ان نصيب العربية منهُ وافرٌ لان الشعراء الاقدمين تركوا لنا من شعرهم كل نفيسٍ غالٍ . فاما شعر الجاهلية فهو من الطبقة الاولى ويتخذ نموذجاً في الاجادة الاّ ان حضارة الاسلام واتساع مشاهداتهم اكسب شعرهم رونقاً جديداً ورقةً لا يعرفها الشعر الجاهلي فلما استحل الاسلام واعتزت الدول العربية ازداد الشعر سناء ولكنهُ ابتعد عن الشعر الجاهليّ وما زادهُ تحسيناً الاخذ فيهِ بالاقتباس من آي القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف ومن الحكم والاشعار القديمة

الاّ ان اختلاط العرب بكثيرٍ من الاعاجم وما لحق بدولهم من الانقلاب من العربي البحت الى غيرهِ شوّه محاسن اللغة وقضى على نقاوتها وما عتّم ان تفرعت عنها اللغات العامية التي بلغت لهذا العهد مبلغها من البعد عن الفصيح . فوهنت قوى الشعر العربي الاّ على قلةٍ ولم يبقَ فطريّاً يعرب عن الخواطر بلغتها بل صار مكلفاً مقيّداً بقيود التقليد . ومع هذا لم يكن عدد الدائبين على قرضهِ قليلاً . وجمل ما نظموا من الشعر والسمين يدلُّ على ان الناظمين لم يجولوا بتخيلاتهم في مضمار مشاهداتهم ولاجعلوا السنتهم تراجمة خواطرهم فتراهم يذهبون الطرف عن حضارة بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وما كان فيهنّ من القصور الشامخة والجنان الرائعة ليعودوا الى ذكرى المنازل والاطلال والمضارب والخيام في القفر البلقع وامثال ذلك مما لم يروا لهُ شكلاً الاّ في وصف الشعراء السابقين . كأن الشعر لا يكون عربيًّا الاّ اذا اتبع تلك المعاني القديمة

على اني اتحمل لاولئك الشعراء عذراً بأن اللغة التي عرفوها ونطقوا بها ليست في شيء من اللغة التي يتخذونها قالباً لتخيلاتهم الشعريّة . فهم اذا ارادوا ان يقرضوا الشعر عادوا الى المعاجم لفتح من دواوينهِ وكتب اللغة فينصرفون اليها كانصراف الطلبة لهذا اليوم الى تعلم احدى اللغات الاعجميّة والتمكن منها فتى احاطوا علماً بما هنالك من الاصول والفروع في النحو

والصرف والبيان والعروض اضطروا الى قراءة دواوين الشعر والاحاطة بقسم غير يسير من اللغة الفصحى فضلاً عما يضطر اليهِ المجيدون من معرفة الآيات الكريمة والاحاديث والحكم والأمثال. فكأنهم يُطلب منهم ان يغوصوا عباب العربيَّة فلا يجدون فيها الاَّ تلك التصورات القديمة والمعاني التي يجب ان تهجر. ولا تحصل لهم ملكة الشعر الاَّ بمزاولة الامعان فيها. فتخرج اساليب ما ينظمون على الطرز القديم. وتختلف جودتها باختلاف ما التقطوا من بحرها الخضم

فترى شعرهم بعد هذا عربيَّ اللفظ لكنهُ يخلو من الميدإ الذي كان يجب ان يستفيدوهُ من انعام نظرهم في شعر السابقين اريد بهِ تخيل المشاهدات وتصويرها والخيال انهم انتهجوا مناهجهم واستعاروا افكارهم والفاظهم وكناياتهم واستخدموا مشاهداتهم ولكن كل ذلك لبيان افكارهم وظاياتهم فابتعدت الشقة بين الطالبين. واصبح شعرهم عربيَّ السبك ولكنهُ غريب عن الشعر الذي يشعر بهِ قائلهُ

لا نقول هذا ونحن نريد ان نجنس شعراء العربيَّة لهذا العهد شيئاً من حقهم لانا نجد بضعة مختارة منهم يجيدون ما شاءت الصناعة الاَّ ان اجادتهم لا تبلغ بهم مبلغ المتقدمين وقصورهم عن اولئك دليل تأثرهم من الحضارة الحاضرة. لان معظم النابغين من شعرائنا يضطرون في هذه الآونة ان يتمكنوا من العربيَّة وعلومها وان يجاروا ايضاً روح العصر بمعرفة شيء من علومهِ وآدابهِ فضلاً عن لغات الاعاجم الذين يخالطهم. واعظم من هذا كلهِ ان الشاعر بيننا لا يستطيع ان ينصرف بكليتهِ لغرض الشعر بل يطالب بمزاولة عمل يدر عليهِ كسباً يعيش منهُ. وبالطبع لا ينتظر ممن يطالب باعمال كثيرة ومطالعات شتى ان يتفرغ للشعر وان يجيء منهُ بالجيد المختار كما كان يجيء شعر بعض المتقدمين المتفرغين لنظمهِ. ففضل المجيد من شعرائنا اليوم اعظم لا سيما وان الشاعر الجاهليَّ الذي ينطق بلغتهِ لا يجاهد في استنطاق عواطفهِ كما يجاهد لهذا العهد شعراؤنا لان هؤلاء يجدون عواطفهم متأثرةً من محيطهم المرتقي فاذا فاتت قرائحهم عسر عليهم التعبير عنها بلغة ليست بلغتهم فلا يجيء كلامهم البسيط الساذج ترجمان خواطرهم وليس هذا شأن اولئك الشعراء

واما الخيال شعراءنا كلهم عن فهم خاطر يعبرون عنهُ بلغتهم العاميَّة المألوفة تعبيراً بليغاً لانهُ يؤدي المعنى الذي يريدون ولكنهم لا يبرزونهُ الاَّ اذا ترجموهُ الى اللغة الفصحى. فهذه الترجمة الفكريَّة تذهب بشيء من طلاوة الشعر ولعلَّ ثمت مواضع الخطر على الذين لم ترسخ اقدامهم في معرفة اللغة ولا صارت لهم ملكة استحضار اساليبها

واذا كان هذا شأن المبرزين من شعراء العربية في عصرنا فما القول في حال اولئك الشاعرين الذين يظنون قرض الشعر من الهنات الهينات يسهل لمن قرأ العروض فمتى قال بيتاً موزوناً ظن انهُ شعر . ان مثل هذا كثير عندنا . وقد مرَّ على بعضهم الايام فيكسبهم المراس سهولة النظم ولكنهم يقيدون بتقليد السابقين في المباني والمعاني . وقلَّ من خرج عن القيد واطلق لقريحتهِ العنان وترجم عن تصوراتهِ بلغتهِ ولذلك يظلمهم من يلقبهم بالشعراء

والعقبة الكؤود في سبيل شعرائنا في المحسنات اللفظية والمعنوية فترى الكثيرين منهم يقصدونها مهما توعر سبيلها ويحسب مجيدًا من ظفر بالكثير من امثالها على انها والحق يقال تذهب بالخواطر الشعرية وتحصرها في معنىً تافه ومبنى سقيم

ومن آفات شعرنا ايضاً ان فئةً من قائليهِ يحسبون الشاعرية قائمةً بغرض المعنى فيعدلون الى التراكيب المحورة والالفاظ المهملة حتى يعسر على عامة الناس فهم مغزى شعرهم فيخالفون بذلك اصول البلاغة

فهل يتنبه اساتذة مدارسنا الى تخريج الطلبة تخريجاً يجعل فيهم ملكة اللغة الفصيحة والاسلوب الحسن حتى اذا ارادوا التعبير عن خواطرهم نظماً او نثراً جعلوا السنتهم تراجمة افكارهم بعبارة صحيحة لا ترسف بقيودها ولا تعاد الى حيث لم يقصد قائلها

ر . ن

حكم وامثال من التلمود

منتخبة من كتاب في التلمود للاستاذ بولانو

تعلَّم اولاً ثم علِّم

قليلون هم الذين يعرفون ذنوبهم

الطعام الذي يطبخهُ طبَّاخون كثيرون لا يكون حارًّا او باردًا

الفرس الذي يطعم كثيرًا من الشعير يصير جموحاً

لا تعمل لغيرك ما لا تريد ان يعملهُ لك

الصبر احياناً خيرٌ من الغنى

دُم طالباً رحمة الله الى ان تلقى على قبرك الحفنة الاخيرة من التراب